الغراب والثّعلب

مقاربة سرديّة-خطابيّة

بقلم جورج موراند Georges Maurand

[منشورة ضمن وثائق البحث لفريق البحوث السّيميا-لسانيّة، لمعهد اللغة الفرنسية، مدرسة الدّراسات العليا في العلوم الاجتماعيّة، والمنتمي للمركز الوطني للبحث العلمي. العدد 17، 1980]

ترجمة: بورايو عبد الحميد

أستاذ التعليم العالي بقسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر

مساهمة مقدّمة للملتقى الدّوليّ ((السّيمياء والنّصّ الأدبيّ)) المنعقد بجامعة محمد خيضر – بسكرة ،بقسم الأدب العربي، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بتاريخ 19-20 أفريل 2004

الغراب والثّعلب

شعر جان دولافونتين Jean de la Fontaine(1621-1695)

(ترجم الخرافة إلى اللغة العربيّة الأستاذ أحمد منّور)

حطّ الغراب رحله بشجرة وبالمنقار جبنة معتبرة

Maitre Corbeau, sur un arbre perche,

Tenant en son bec un fromage

فاستنشق الثّعلب ريح الجبن فجاء يسعى لنداء البطن

Maitre Renard, par l`odeur alleche, Lui tint a peu pres ce

ووجّه الخطاب للغراب وقال ما معناه بالتّقريب

"صباح الخير سيّد الغربان يا أجمل ما رأت عينان

“He! Bonjour Monsieur le Corbeau Que vous etes joli! Que

vous me semblez beau! غناؤك وريشك الجميل كلاهما منسجم أصيل

Sans mentir, si votre ramage

أقول صدقا: "إنّك العنقاء(1) وباقي طير الغاب أدعياء"

Vous etes le Phenix des hotes de ces bois

فانخدع المغرور بالإطراء وفتح المنقار للغناء

A ces mots le Corbeau ne se sent pas de joie,
Et pour montrer sa belle voix,
فسقط الجبن من الأعالي بين يدي الثّعلب المحتال
Il ouvre un large bec, laisse tomber sa proie.
فقال شكرا أيّها البهلول(2) ولتحفظ الدّرس وما أقول
Le renard s`en saisit, et dit: "Mon bon Monsieur
"يعيش كلّ متملّق بفيه على حساب من يصغي إليه" Apprenez que
tout flatteur
Vit au depens de celui qui l`ecoute.
ألا يساوي مثل هذا الدّرس قطعة جبن تشترى بفلس؟!
Cette lecon vaut bien un fromage, sans doute."
فحزّ في الغراب هذا الوعظ وقد عراه خجل وغيظ
Le Corbeau, honteux et confus,
تالله بعد اليوم لن تنال منّي شيئا كثيرا أو قليل الشّأن
ura, mais un peu ard, qu`on ne l`y prendrait plus.

---

(1)العنقاء طائر خرافيّ نسجت العرب حوله الكثير من الحكايات، وهو الذي أطلق عليه اليونان اسم "الفينيق" ونسبو إلى العرب. راجع موسوعة أساطير العرب لمحمد عجينة، نشر دار الفارابي، بيروت 1994، ج1، ص336 إلى 340. [المترجم].

(2) البهلول في الفصحى معناه المرح الكريم، أمّا في العامّية فمعناه المتخلّف عقليّا أو المغفّل، وهذا هو المعنى المقصود في النّصّ. [المترجم].

التّرجمة الحرفيّة (1)

(قام بها الأستاذ عبد الحميد بورايو)

الغراب والثّعلب

السيّد غراب، على شجرة كان واقعا،

كان مطبقا على جبنة بمنقاره.

السيّد ثعلب، جذبته الرّائحة فجاء طامعا،

وجّه له كلاما من هذا القبيل:

"آه! صباح الخير، سيّدي غراب.

ما أجملك! كم تبدو لي في غاية الحسن!

بدون ادّعاء، لو أنّ زقزقتك جاءت
مناسبة لريشك،
لكنت ملك ضيوف هذا الغاب."
لم تسع الدّنيا فرحة الغراب لمّا سمع هذه الكلمات؛
ولكي يظهر جمال صوته،
فتح منقاره عن آخره، فسقط منه صيده.
التقطه الثّعلب، وقال: "يا سيّدي النّيّة، لتعلم أنّ كلّ مداهن
يحيا على حساب من استمع إليه.
ثمن هذه النّصيحة بدون شكّ جبنة."
استبدّ الخجل والارتباك بالغراب،
وقطع على نفسه عهدا، جاء نتأخّرا، لن يخدع مرّة أخرى.
لافونتين، الخرافات،2،1.

(1) سوف نستعين بهذه التّرجمة الحرفيّة في ترجمة التحليل فتكون هي المرجع بصفة أساسيّة، وذلك لصعوبة متابعة الاستشهادات من خلال التّرجمة الأدبيّة التي نجد فيها بعض التّصرّف في المفردات والتّراكيب. كما سنعود بخصوص معالجة القافية وبعض الظّواهر الأسلوبيّة إلى النّصّ الأصليّ في لغته الأصليّة.[المترجم]

0.بعض الملاحظات حول مبدأ هذا التّحليل

تستند مقاربتنا للخرافة fable على معالجة وظيفة النّصّ المزدوجة؛ السّرديّة والخطابيّة. من المعلوم أنّ السّيميائيّات semiotique، في نموذجها التّوليدي لمسار الدّلالة، فضّلت دائما الأولى، مكتفية بمنح مكانة نظريّة للثّانية. إنّ أوّل تطبيق له أهمّيته أجري للنّظريّة السّيميائيّة في مجموعها بغرض تحليل خطاب معيّن، كان المؤلّف الذي وضعه ا.ج.غريماص حول قصّة لموباسان (1).

في دراستنا، تظلّ السّرديّة الهدف المركزيّ للتّحليل وتمثّل قطب المقاربة المنجزة. نرى أنّ جميع عناوين القسم الثّالث الموسّع فيما سيأتي ("التّحليل السّرديّ والخطابيّ") مشكّلة من تسميات سرديّة وصفيّة جرى استعمالها: "امتلاك"، "فقدان"، "تعرّف"، "عقد"، "أداء"، "تقويم".

لكنّ البنيات السّرديّة لا تعالج في مرحلة أولى، ولا تبرّر في مرحلة ثانية، إلاّ من خلال البنيات الخطابيّة، فهذه الأخيرة يمكن أن تعتبر كتحيين أو كوضع في خطاب للأولى. يبرز هذا العمل ثلاث طبقات من البنيات الخطابيّة: 1) "الحقول المعجميّة"، المعالجة في القسم الأوّل؛ 2) "المقاطع الخطابيّة" (القسم الثّاني: تقطيع النّصّ)، 3) البنيات الخطابيّة، التي تجلّي مباشرة الملفوظات السّرديّة، المعالجة في القسم الثّالث. هذه الطّبقة الأخيرة، التي لم تهتمّ بها بعد النّظريّة بصفة منهجيّة، تعود للمجال المنسوب تقليديّا للأسلوبيّة. من بين التّوظيفات الخطابيّة التي تمّ جزئيّا تنظيرها، يتمّ تمييز: إبراز المنحى، إبراز الزّمن، إبراز الفضاء، إبراز الممثّلين.

لقد كان تقسيم النّصّ إلى مقاطع خطابيّة تتجسّد فيها مسبّقا المقاطع السّرديّة موضوع دراسات متطوّرة. يمكن الإشارة إلى مؤلّف ا.ج.غريماص المذكور أعلاه.

ترتكز إقامة الحقول المعجميّة –وهو مفهوم قريب، في النّظريّة السّيميائيّة لغريماص وكورتيس، من التّشاكل isotopie– في مستهلّ التّحليل، على تجريد الغرضي من التّصويريّ. تقود هذه العمليّة إلى اقتراب دلاليّ أوّل من الخطاب. تضمن النّتائج المحصّل عليها، من ناحية، تقسيم النّصّ موفّرة المقياس الإضافي للتّجسيدات المعجميّة، من ناحية أخرى تسمح ببناء القيم والأدوار الغرضيّة والقضايا الخ.. دلاليّا والتي تستند عليها الموضوعات والعاملون والأداءات ... في البرامج السّرديّة.

I– دراسة البنيات المعجميّة

I– 1. مدخل للحقول المعجميّة

لا يمكن للحقول المعجميّة أن تتبني إلاّ إذا ما تمّت قراءة النّصّ عدّة مرّات. إنّ الأمر يتعلّق في هذه المرحلة الأولى من التحليل بترتيب مفردات المعجم تحت مقولات دلاليّة موسّعة إلى اقصى حدّ ممكن، والتي تستخرج وتتحدّد بقدر ما يكون فهم المعنى الإجماليّ أكثر دقّة. هناك ميل طبيعيّ –وهو الحلّ الأسهلــ يتمثّل في البحث عن وجود نفس القائمة للحقول المعجميّة في مختلف النّصوص. إنّه الوقوع في الوهم. في الواقع، من المناسب ملاحظة الأمر الآتي: إنّ مفردة ما، كلّما كانت معزولة، لا يمكن أن يدّعى بأنّها مندرجة في حقل معجميّ محتمل. حتّى وإن كان المخاطب قادرا بصفة متميّزة على أن يمنحها تعريفا مماثلا لتعريف المعجم. لابدّ من انتظار مفردات أخرى لتؤكّد هذا العنصر أو ذاك. فالمفردة لا تنقل مباشرة من المعجم إلى النّصّ بجميع احتمالاتها الدّلاليّة: فالسّياق

يختار هذه السّمة أو تلك، ويضع السّمات الأخرى بين قوسين. تحدث عمليّة اختزال دلاليّ أو قصر معنويّ.

كيف يحدث هذا الاختيار للمعنى المعجميّ للمفردات عن طريق السّياق؟ فيما يظهر لنا، بصفتين متكاملتين، يمكن أن ندعو ذلك اختيارا بالتّشابه واختيارا بالتّضادّ. هكذا، في الخرافة التي بين أيدينا، يدرك القارئ بسرعة عددا من الحدود الدّالّة على "التّملّك"، مثل "بالمنقار"، "سيّد"، بمعنى "امتلاك كائن لشيء ما"؛ وبالإضافة إلى ذلك يدرك بسهولة أكبر أنّ نفس العبارة توفّر عدّة تجلّيات في النّصّ. تتضادّ مع هذه الكلمة، كلمات ذات معنى مخالف أو مضادّ، مثل "فسقط" (=فقد) أو "فتح" (والتي تتضاد مع "بالمنقار"، تفترض هنا، فيما يبدو عدم المحافظة على الشّيء). بهذه الصّفة يتجمّع هناك بصفة محسوسة عدد من الحقول ذات الطّباق المزدوج. إلى جانب علاقة التّعارض التي لها أهمّية كبيرة، توظّف دائما علاقة انضوائيّة. توفّر حكاية "الغراب والثّعلب"، فيما نرى، مثالا لهذا التّوظيف: حقل عامّ من "سنن" (موسّع) بمعنى "مجموع قواعد أو مواضعات" يشمل ثلاثة حقول فرعيّة (منضوية) نقترح تسميتها "سنن اللّياقة" و"سنن تبادل القيم" و"السّنن الخلقيّ" (أنظر ما سيأتي).

لكي يبرّر حقل معجميّ وجوده، لابدّ أن يلعب دورا ما في بناء النّصّ، عن طريق لعبة التّشابهات والتّضادّات والمجموعات الفرعيّة. مثلا، التّضادّ: "بشريّ"/ "حيوانيّ" قد يكون مهمّا في بعض النّصوص. هنا، لا يظهر أنّه كذلك، إذ أنّه من المتعارف عليه في الخرافة إضفاء سلوك بشريّ على الحيوانات. فالحيوان لا يتضادّ مع الإنسان، بل يحتلّ موقعه: فالأمر لا يتعلّق بـــ"التّوحّش"، بل بـــ"الحيوان النّاطق".

جدول الحقول المعجميّة

1-التّملّك (+) / الفقدان (−)	2-ماهو ذو قيمة(+)/ عديم القيمة(−)	3- الغذاء
سيّد (مرّتان) (+)	السيّد (مرّتان) (+)	المنقار (مرّتان)
مطبقا (+)	سيّدي (مرّتان) (+)	جبن (مرّتان)
فتح (−)	أجمل (+)	الرّائحة
سقط (−)	مالحسن (+)	طامعا
التقط (+)	ملك(+)	صيد

على حساب (–) إلى جانب جميع ضمائر الملكيّة، سواء المنسوب منها للغائب أو المخاطب.	جمال (+) عن آخره(+) النّيّة (–) الخجل (–) الارتباك(–)	يحيا

4–الكلام	5–الحسّ	6–الصّدق
منقار (مرّتان) كلام ادّعاء زقزقة كلمات صوت قال مداهن استمع نصيحة عهد	1.5.الشّمّيّ الرّائحة 2.5.البصريّ أجمل الحسن ريش 3.5. السّمعيّ صوت استمع	تبدو ادّعاء كان يظهر مداهن بدون شكّ من هذا القبيل

7– السّنن الاجتماعيّ–الخلقيّ	8– العاطفة	9–الإطار الموقعيّ
1.7. سنن اللّياقة. صباح الخير سيّدي ضيوف 2.7. سنن تبادل القيم لو أنّ... لكنت (الأبيات6إلى 9 على حساب	طامعا(+) لم تسع الدنيا(+) فرحة (+) خجل(–) ارتباك (–)	غراب شجرة واقعا ثعلب زقزقة غابة

ثمن 3.7. السّنن الأخلاقيّ (+،−) أدّعاء(−) لتعلم (+) مداهن(−) ثمن(+) خجل(−) ارتباك(+)		

تبرير الحقول المعجميّة

إنّ التّرتيب الذي قدّمت على أساسه الحقول المعجميّة ليس مفيدا؛ فقد تمّ الاعتماد على وضع الكلمة الأولى في النّصّ فرتّبت الكلمات في الجدول تبعا لأسبقيّتها. من المناسب أن نشير إلى الأهمّية التّرقيميّة للجداول في تتابعها حسب الصّفة التي احتلّت بها الفضاء النّصّي وحسب العلاقات التي تربط بعضها بالبعض الآخر.

في البداية، تبرز أربعة حقول معجميّة بوضوح، منها اثنان قائمان على التّعارض "التّملّك" – "الفقدان" و"ماله قيمة" – "عديم القيمة"، وهناك اثنان يبدوان لأوّل وهلة مستقلّين: "الغذاء" و"الكلام". يفرض الحقل الأوّل نفسه عن طريق العبارتين: "مطبقا" و"السّيّد". هذه الأخيرة تعني في القاموس تسمية أطلقت على أعيان البورجوازية، هذا صحيح بدون شكّ، غير أنّ السّياق هنا يمنحها المعنى المتعلّق بـــ"السّيادة" أو حيازة شيء ما. فالغراب، من فوق، من موقعه المهيمن، هو "سيّد الغذاء"، الذي جاء على شكل جبنة؛ أمّا الثّعلب فهو سيّد شيء آخر، إنّه "الكلام". هكذا يرتبط الحقلان 3 و 4 بعلاقة: إنّهما يعيّنان طرازين من الأشياء، التي هي منذ البداية من حظّ كلّ شخصيّة. إنّ الحقل 1 ممثّل في كامل النّصّ، ما عدا الفقرة ذات الأسلوب المباشر: "صباح الخير سيّد الغربان .. أدعياء". إنّه على جانب كبير من الأهمّية سواء بدرجة حضوره أو بعدد تجلّياته. يلاحظ إضافة إلى ذلك بأنّ النّصّ يتوجّه، عموما، من التّملّك نحو الفقدان. يشغل حقل "الغذاء" إجمالا نفس أجزاء النّصّ التي يشغلها حقل "التّملّك–الفقدان"، لكنّه أقلّ تمثيلا، لعلّ ذلك يعود لكونه يلعب دورا تكميليّا لدور "الكلام" باعتباره موضوعا ممتلكا. هذا الحقل الأخير "الكلام" يشغل جميع النّصّ، بما فيه الفقرة ذات الأسلوب المباشر، التي هي نفسها تجسيد لـــ"الكلام" ولسلطته. كلّ هذه

الفقرة تؤكّد أهمّية هذا الحقل المعجميّ، إنّه ليس من باب المصادفة أن يذكر متلفّظ النّصّ (القاصّ) أقوال الثّعلب ولا يذكر أقوال الغراب. إنّه لمن الجدير بالذّكر استنتاج أنّ نفس الكلمة "منقار"، توجد في حقل "الغذاء" وفي حقل "الكلام" في نفس الوقت، لتقيم رابطا إضافيّا بينهما. يمتدّ الحقل المعجميّ الثّاني "ذو القيمة–عديمها" على جميع النّصّ ويكتسب أيضا من هنا أهمّية كبيرة. إنّه يتّجه من "ذي القيمة" نحو "عديمها". فكلمة "النّيّة" تعني الطيبة لكنّها تعني أيضا المسكين "عديم العقل".

يمتزج الحقل الخامس "الحسّ"، والمنقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام، في حقله الفرعيّ الثّالث، بحقل "اللّغة". هل يجب أن نرى في الحسّيّ معادلا للقوليّ، إذ يعمل الأوّل كإشارة، بينما يشتغل الثّاني كدليل؟. تخصّ حقل "الصّدق" مفاهيم "الكينونة" في تضادّها مع "المظهر"، "الكذب" في تضادّه مع "الصّدق"، يتداخل مع حقل "الكلام". ولاشكّ أنّه يقترب منه في مستوى التّأويل الإجمالي؛ يسمح بتحليل استراتيجيّة "المداهنة"، التي لم نعاملها كحقل معجميّ، لأنّها أدخلت ميكانزمات أخرى غير معجميّة.

ينقسم الحقل المعجميّ السّابع، السّنن "الاجتماعيّ الخلقيّ" إلى ثلاثة حقول فرعيّة تهمّ ثلاثة مستويات من السّلوك البشريّ. يبدو أنّ هناك تطوّرا، على طول النّصّ، من الحقل الفرعيّ الأوّل إلى الثّالث. وضعنا في الحقل الفرعيّ الثّاني العبارة المنطقيّة "لو أنّ... لكنت" التي تمثّل في حدّ ذاتها صيغة تبادل. يمتزج الحقل الثّامن، "الحسّ"، جزئيّا مع الحقل الفرعيّ الخاصّ بـــ"السّنن الخلقيّ"؛ وتقيم تمظهراته الثّلاثة في هذه الأثناء حقلا مستقلاّ. في مستوى الوظائف الإجماليّة، هنا أيضا، لابدّ من القيام بمقاربات.

بينما بالنّسبة للحقل المعجميّ الأخير، "السّنن الموقعيّ"، لا نوليه أيّة عناية خاصّة، فهو قارّ في النّصوص. فحدّ "زقزقة" بمعنى حقل الطّير الواقع على الأغصان تمّ استثماره في "الكلام". الحدّ "ثعلب" الحافّ بـــ"الحيلة" كان يمكن أن يظهر في "السّنن الاجتماعيّ–الخلقيّ". في الواقع، إنّ مفردتي "غراب" و"ثعلب" المشكّلتان لعنوان الخرافة، يتلقّيان معناهما من كلّ محتوى النّصّ؛ سوف يتمّ النّظر إليهما في مرحلة تالية من التّحليل، مرحلة الحقل الدّلاليّ.

II- تقطيع النّصّ

1.يسمح نسق القوافي بتقطيع أوّل:

ا) رباعيّ ذو قوافي مفروقة:

“Perche – fromage – alleche – langage”

ب) مجموع ثمانية أبيات مشكّلة لرباعيّين، أحدهما له قوافي مجموعة:

“Corbeau – beau – ramage – plumage”

والآخر له قوافي مفروقة:

“bois – joie – voix – proie”

على عكس الرّباعيّ الأوّل، الذي يشكّل كلاّ، تركيبيّا،الرّباعيّان الآتيان لا يقطّعان فضائين نصّين مستقلّين:الثّاني يتبع تركيبيّا الأوّل عن طريق البيت 9

ج) رباعيّ ذو قوافيّ مجموعة، حيث الاستقلال الوزنيّ يناسب الاستقلال التّركيبيّ:

“monsieur – flatteur – ecoute – doute”

د) في الأخير نجد مزدوجا، ينفصل بدوره بتركيبه وبقافيته:

“confus – plus"

2.يأتي مقياس الاستعمال الزّمنيّ ليؤكّد التّقطيع الحاصل بفضل مبدإ تجسّدات القافية. فالماضي المركّب والماضي البسيط: "tenait…tint" يموقعان الرّباعيّ الأوّل على الصّعيد التّلفّظيّ للقصّة. يتميّز المقطع الكبير الثّاني بالاستعمال الثّابت للحاضر، الذي يموقعه على الصّعيد التّلفّظيّ للخطاب في الأبيات الخمسة الأولى، يتعلّق الأمر بحاضر الخطاب المباشر: يعطي المتلفّظ الكلمة للبطل؛ في الأبيات الثّلاثة الآتية، يتعلّق الأمر بحاضر السّرد: يطابق المتلفّظ ما بين زمن الملفوظ، أي زمن الوقائع المسرودة، الذي هو موضوعيّا الماضي، وزمن التّلفّظ، الذي هو لحظة إنتاج الخطاب.

يضع المقطع الثّالث (الأبيات 13–15) مؤقّتا النّصّ على الصّعيد التّلفّظيّ للقصّة، وهذا الفصل الزّمنيّ يعمل كإشارة فارقة بين الفقرتين. غير أنّ الأسلوب المباشر يعيد سريعا الملفوظ إلى مستوى الخطاب.

في المزدوج الأخير، يأتي الماضي البسيط لينهي الخرافة فيموقعها على الصّعيد العامّ للقصّة. تشكّل الأقسام السّرديّة الإطار الذي تندرج فيه قطع خطابيّة، متضمّنة بصفة ما.

3. يتدخّل توزيع الممثّلين (في النّصّ) كمبدإ ثالث لإجراء التّقطيع، من أجل تأكيده وضبطه في نفس الوقت. فالمقطع الأوّل هو تقديم للمثّلين: "الغراب"، "الثّعلب"، اللذان خصّص لكليهما بيتان. يصف المقطع الثّاني بالتّتابع سلوك كلّ منهما (الأبيات 5–9 والأبيات 10–12) مع منح الثّعلب فضاء نصّيّا أوسع؛ خمس أبيات مقابل ثلاث. ركّز

المقطعان الثّالث والرّابع على التّوالي على الثّعلب والغراب. إذا ما كان المقطعان الأوّلان قد جمعا بين الممثّلين، لعلّه من المفاجئ أنّ المقطعين الأخيرين فصلا بينهما. في الواقع، إذا ما استحضرنا مقياسا تكميليّا، وهو المتعلّق بالحقول المعجميّة، نستنتج بأنّ الأبيات السّتّة الأخيرة تجمع تقريبا كلّ جدول الحقل المعجميّ المسمّى "سننا اجتماعيّا–خلقيّا". يتمّ إذن تحليل هذه الفقرة باعتبارها مقطعا واحدا متجانسا دلاليّا.

4. تؤكّد حركيّة الصّوائت الممدودة عن طريق القافية المقياس السابق بخصوص تجميع الأبيات السّتّة الأخيرة في مقطع واحد. تتميّز هذه المجموعة في الواقع بصوائت شفويّة نصف مضمومة [0] أو مضمومة [u] و[y]: البيت 13: [m o s j o] (2) البيت 15 [e k u t]. البيت 18 [k o f y] البيت 14: [f l a t o] البيت 16: [d u t] البيت 19: [p l y]

يتميّز المقطع المركزيّ بهيمنة الصّوائت المفتوحة: [a] السّابقة على الأبيات 7 و 8 ، [a] التّالية للأبيات 9، 10، 11، 12.

5.نقترح إذن تقطيع النّصّ إلى ثلاثة مقاطع نسمّيها على حسب توقّعات التّحليل السّرديّ:

–الامتلاك المضاعف (الأبيات 1 إلى 4)؛

–الفقدان (الأبيات من5 إلى 12)؛

– التّقييم المضاعف (الأبيات من 13إلى18)؛

III– تحليل سرديّ وخطابيّ

III. 1 . المقطع الأوّل: التّملّك المضاعف (الأبيات من 1 إلى 4)

III. 1 . 1 . ملكيّة الغراب (البيت 1 و2)

يعبّر شطرا البيت الأول عن حالة تملّك؛ اتّصال ذات (ذا)، يجسّدها تصويريّا الممثّل "غراب"، بموضوع (م1)، مجسّد تصويريّا عن طريق كلمة "الجبن".

(ذا1 II م1)

يتحدّد هذا الموضوع دلاليّا باعتباره "غذاء" أو "مادّة استهلاكيّة"؛ تمّ تأكيد هذه القيمة، على صعيد النّصّ، عن طريق الحقل المعجميّ "غذاء"، وعلى صعيد السّياق، عن طريق العبارة "في منقاره". يجعل استخدام كلمة سيّد بالمعنى الذي شرحناه عند دراسة الحقول المعجمية، ذا1 كفأة من حيث القدرة: فالغراب بفضل موقعه المنيع، يستطيع أن يصدّ كلّ محاولة تجعله يفقد ما يملك. "على شجرة كان واقعا"، مطبقا على الجبن

"بالمنقار"، إنّه في موقع قوّة. من ناحية أخرى، استعمال اسم الفاعل مطبقا tenant في البيت الثّاني يجعل الذّات ضمنيّا كفأة من حيث الإرادة: فـ"مطبقا" تعني أيضا أنّ الغراب متمكّن من شيء يشدّه برغبة لكي لا يفقده. هكذا إذن تمّ تقديم (ذا 1) كمالكة لشيء ترغب فيه ويمكنها أن تحتفظ به. مع ذلك، فإنّ "إطباق المنقار على جبنة" لا يعني التهامها، بل يعني تمديدا لامتلاكها دون استهلاكها. فاستخدام الماضي المركّب يعطي أيضا هذا الأثر المعنويّ: فالمنحى الماضويّ الممتدّ لهذه الصّيغة الفعليّة تعطي للقضيّة منظورا توسّعيّا، بدون حدّ مرتقب: فسيّد الغذاء، الغراب، يظهر بالضّبط كسيّد لملكيّة بصفة ممتدّة غير منتهية. من هنا يتّخذ الموضوع "الجبن" قيمة مضاعفة: القيمة الأولى كغذاء، الذي نسميه بعبارة أكثر شمولا قيمة نفعيّة (ن) وقيمة ثانية تتمثّل في الرّفعة (ر). فإذا كانت الأولى قد تحقّقت عن طريق الإطباق "بالمنقار"، فإنّ الثانية احتماليّة مادام لم يعترف بعد بها. فالرّفعة تتحدّد بكونها تحصل عن طريق إثارة الدّهشة لدى شخص آخر. هكذا فإنّ البنيتين الأوّلتين تعبّران في نفس الوقت عن حالة تملّك، كنّا قد وصفناهما، وعن برنامج احتماليّ، يسمح للغراب بأن يستثمر القيمة الإضافيّة للموضوع وهي الرّفعة، دون أن يفقد القيمة النّفعيّة الأولى. يستجيب هذا البرنامج المرتقب للصّيغة:

ب س1احتماليّ: و(ذا3=ذا1) ـــــ [(ذا1 I I م1ن) ـــــ (ذا1 I I م1ن+ر)]

فالذّات المنفّذة ذا3، التي هي باعتبارها ممثّلا تقابل ذات الحالة (ذا1)، الغراب، يعمل هذا الأخير بحيث يمرّ من حالة يتّصل فيها بموضوع الغذاء ذي القيمة النّفعيّة، إلى حالة أخرى يكون فيها لهذا الموضوع أيضا قيمة الرّفعة.

III. 1 . 2 . ملكيّة الثّعلب (البيتان الثّالث والرّابع)

يعبّر البيتان الثالث والرّابع مثل البيتين السّابقتين عن حالة امتلاك: وصل (ذا2)، التي جاءت في صورة الممثّل "ثعلب"، بموضوع (م2)، الذي جاء في صورة "كلام".

(ذ2 I I م2)

تترجم العناصر السّيمتريّة للمزدوج والتي تشكّل الرّباعي الأوّل، على طريقة الملامح الأيقونيّة، العلاقات بين حالتي التّملّك: علاقات قوّة في البداية، إن صحّ التّعبير، موحى بها عن طريق تواردات معجمية، تركيبية ووزنيّة. فالهوية الاستهلاليّة للبيتين 1 و3 وهوية القافية للبيتين 2 و4 تجعلان كلّ واحدة من الذّاتين طبعا سيّدة ومتمكّنة من شيء–موضوع، مشار إليه كغرض، حسب عناوين الحقول المعجميّة، "غذاء" بالنّسبة لـــ

(ذا1) و"لغة" بالنّسبة لـــ (ذا2). يتضمّن التّوازي الوزني للموضوعين والذّاتين توازيا وظيفيّا. هناك سيمتريّة أخرى بين المزدوجات، فالبنيتان الاشتقاقيّتان المصرّح بهما في البيتين 1 و 3 تتدرجان معا بين العبارة الإسمية للفاعل والعبارة الفعلية، وتكتسبان ثقلا وزنيا خاصّا مقدّمتين مقطعا قبل قاسمة البيت العشاري المقاطع. تقابل سيمترية الدّالّ هذه سيمترية المدلول: تصوغ أسماء الفاعل الذّاتين (ذا1) و (ذا2)، باعتبارهما ذاتين احتماليتين للفعل. يتّصل كلّ واحد من هذين الفاعلين الذين عرفناهما كذاتين للحالة، بموضوع، هما أيضا، كما أشير بالنّسبة لـــ (ذا1)، ذاتان احتماليّتان للفعل؛ لكنّ الأمر يتعلّق بالفعلين المختلفين من حيث المنحى؛ فالماضي النّاقص للفعل 2، "كان"، يعبّر عن استمرار التّملّك، الحفاظ على حالة كانت موجودة، بينما الماضي البسيط للفعل 4 يعبّر بمنحاه التّمامي عن المبادرة إلى التّملّك، أيّ إنتاج حالة جديدة. هذا الاستعمال يبدو أكثر وضوحا لمّا، معجميّا تدلّ "كان" على عدم التّمام: بالنّسبة لـــ "التقط"، التي تعبّر عن عمليّة الشّروع في حالة التّملّك، إنّه يترجم وضعيّة عدم الخروج من هذه الحالة. فالمباغتة التّركيبيّة لـــ "التقط" لا تبرّر إلاّ باعتبارها ردّا على "كان"؛ فقد عورض نمط سيطرة يتبدّى من خلال المحافظة بآخر، يتبدّى في الانتزاع. إنّ الغراب والثّعلب صاحبا لقب (بالمعنى الرّياضي للكلمة، كما يقال عادة "صاحب لقب")، انتزعه الثّاني من الأوّل.

يدلّ اسم الفاعل في الجملة الأولى "على شجرة واقع" على **القدرة على الفعل** لـــ **(ذا1)**، أي "القدرة على البقاء محتفظا بـــ...". أمّا اسم الفاعل في الجملة الثّانية، "فجاء طامعا"، فيدلّ على "**واجب الفعل**" لـــ **(ذا2)**، أي، في البداية، واجب تملّك اللّغة: فاستقبال الرّائحة أثار عند الحيوان الجائع نشاطا لغويّا. من هنا فإنّ هذا النّشاط، يجعل متلقّي الخطاي (=القارئ) يفهم جيّدا بأنّ **(ذا2)**، الثّعلب، مدفوع نحو برنامج آخر، حيث لا تكون اللغة سوى وسيلة إنجاز. فبالنّسبة لثعلب طامع، لا يمكن للرّائحة إلاّ أن تثير رغبته في الحصول على الجبنة. غير أنّ **انعدام القدرة** الاستعماليّة تتطلّب وضع برنامج أداة. تستدعي كلمة "طامع" فكرة اللّذّة، بحيث فإنّ **واجب–الفعل** هنا لا ينفصل عن **الرّغبة في الفعل**، في الإندفاع ذي الطّبيعة الغريزيّة الّذي استبدّ بالثّعلب. إضافة إلى ذلك فإنّ المفردة "طامع" تتضمّن عادة في اللغة السّمة "قصد": طمع، يعني "وقع إغراؤه عن طريقة إثارة حاسّته الشّمّيّة، لكي يحصل على ما اشتهاه بصفة ما "، ألا يختفي، خلف السّبب المادّي المتمثّل في الرّائحة، عامل باعث على الطّمع؟ إنّ التّعليق السّابق على الموضوع "جبن"

وعلى قيمته المتضمّنة والامتيازيّة، يسمح لنا بالإجابة إيجابا: فالغراب في استمرار سيطرته، يبحث على أن يجذب إليه كلّ المعجبين المحتملين. على أيّ حال، فإنّ رؤية الثّعلب الطّامع لن تثير نفوره.

للعبارة الفعلية نفس البنية في كلّ مزدوج، إذا ما استثنينا أداة التّشبيه "مثل" التي تحيل إلى المتلفّظ والذي سوف نتحدّث عنه في نهاية التّحليل: فعل + عبارة اسمية + عبارة حرفية.

البيت2البيت 4ع.ف ع.ف ف ج.إ ع.ح ف ع.إ ع.ح كان مطبقا جبن بمنقاره وجّه هذا الكلام له

(لا نأخذ بالاعتبار هنا التحوّلات المتعلّقة بصيغ الضّمائر والانتقال المكاني).

هذه السّيمتريّة التّركيبيّة التي تضع سيّد الغذاء في مقابل سيّد اللغة هي مخترقة بتعارضات هامّة. فبالإضافة إلى التّضادّ في المنحى المشار إليه من قبل، والذي يتعلّق بالفعل، هناك تضادّ دلاليّ متعلّق بنمط العلاقة التي يقيمها الفعل مع العبارة الجمليّة. في الحالة الأولى يتعلّق الأمر بعلاقة لزوم: يظلّ الموضوع متوحّدا مع الذّات: "كان مطبقا.. بمنقاره"، أي مجازا، محتفظا لنفسه. في الحالة الثّانية، على العكس، يتعلّق الأمر بعلاقة متعدّية: يقع انتقال الموضوع إلى ذات أخرى، فقد تمّ بثّ الكلام. بالإضافة إلى ذلك، ليس للموضوعين في ذاتهما نفس الوظيفة الدّلاليّة. فـــ"الجبن" موضوع ذاتيّ، وبعبارة أخرى، شيء مخلوق، متحقّق (3). يستنتج من هذا التحليل بأنّ الكلام ليس الموضوع الوحيد الذي يسيطر عليه الثعلب، ولكنّه أيضا وسيلة الوصول للغراب، يتلافى مأزق التّواجد في وضع المسيطر عليه ومواجهة الغريم بفضل برنامج سوف تنمّيه المقطوعة الثّانية. في التّوجّه نحو الغراب، يلعب "الكلام" دورا مماثلا لـــ "الرّائحة" التي بلغته: هذا وتلك ما هما سوى أداة تواصل. لكنّ الرّائحة، التي انتشرت، بالنّسبة للغراب، بسبب الكلام الذي ينقصه، في صيغة الماضي النّاقص للكناية –كناية عن الجبنة، هي بصفة غير مباشرة كناية عن المالك متوحّدا مع ملكيّته – تعمل كإشارة، بينما الكلام، الذي هو تعريفا نقل لرسالة يمثّل استعاريّا مرسلة، يعمل كعلامة. فهويّة الغراب تكمن في ما عنده، وهويّة الثعلب تتجسّد فيما يقول. إذن تفهم أكثر الدّلالة المتولّدة عن التّضادّ السّيمتري للعبارتين الفعليتين:

"كان مطبقا منقاره على جبنة" عكس "وجّه له هذا الكلام"

كلّ من الذّاتين متمكّنة من موضوع تسيطر به – بمعنى وسيلة الفعل – على الذّات الأخرى . هذه الذّات الأخرى غير مخصّصة بالنّسبة للغراب، فقد تكون أوّل قادم، مثل الثّعلب، وقد تكون جميع "المقيمين في الغابة". تعمل **قيمة الاستعمال** للموضوع "غذاء" كـ**قدرة على الفعل** في برنامج تملّك قيمة الرّفعة.

لننظر في التّطوّر السّرديّ في نهاية المقطوعة الأولى. حقّق الغراب جزءا من البرنامج المرتقب الذي سوف يجعله متّصلا بموضوع (م1ق): لقد استثار كلام الثّعلب (م2) ومن خلال ذلك تمّ لعب دور مرسل–مهيمن:

ب س2 يحقّق ف ف (ذا4):ف(ذا 3=ذا2)ـــــ[(ذا2 I I م2)ـــــ(ذا2 I I م2)ـــــ(ذا2 I I م2)]

فالذّات المهيمنة (=ذات فعل–الفعل)، الغراب (ذا4) جعلت الذّات المنفّذة، الثّعلب (ذا3) تصبح ذاتا (ذا2) متّصلة بموضوع "الكلام". إنّه من وجهة نظره، برنامج استعماليّ، قدرة على الفعل، بغرض الحصول على موضوع (م1ق).

أمّا الثّعلب، الموصول بالكلام، فيجد نفسه بفضل ذلك كفئا بالنّظر للقدرة على الفعل، لكي يحقّق برنامجه الضّمنيّ، وهو امتلاك الموضوع (م1)، متسبّبا، بالنّسبة للغراب، في فقد نفس الموضوع:ب س 3 احتماليّ: ف(ذا3) ـــــ [(ذا2 I I م1 I I ذا1) ـــــ (ذا2 I I م1 I I ذا1)]

تمثّل عبارة "الكلام"، المعبّرة عن القدرة على الفعل لدى الثّعلب ممهّدا للأبيات الخمسة التّالية التي تنمّي برنامجا استعماليّا.

III. 2. المقطوعة الثّانية: الفقدان (من البيت 5 حتّى البيت 12).

المقطوعة الكبرى الثّانية، المسمّاة فقدان بسبب الحالة النّاتجة عنها والتي تميّزها، في تضادّها مع طابع الهيمنة المميّز للمقطوعة الأولى، هي في الواقع جدّ معقّدة، وتحتاج، قبل تحليلها، إلى معالجتها من خلال تمفصلاتها الأساسيّة. الأبيات الخمسة الأولى (5–9)، التي هي توضيح لمحتوى "كلام" (أنظر البيت 4) الذي تكفّل به الثّعلب، تضعها سرديّا في مستوى الاستعمال manipulation. هاتان المرحلتان السّرديّتان الرّئيسيّتان تنقسمان بدورهما إلى مقطعين سرديّين سوف نحاول أن نصفهما.

III.2.1. الاستعمال

باعتباره مرحلة من خطاطة سرديّة، يتحدّد الاستعمال باعتباره فعل–فعل: مرسل–مستعمل، (ذا4)، الثّعلب، يجعل مرسلا إليه ينفّذ برنامجا، (ذا3)، الغراب. يقوم **الفعل الاستعماليّ** بالنّسبة لـــ(ذا4) على جعل (ذا3) كفأة لتنجز **الأداء** المتوقّعة: **انفصال** (ذا1)، الغراب، عن **موضوع القيمة** المتجلّي في **الموضوع الصّوريّ** "جبنة" (م1ن). لهذا الغرض، يلجأ المستعمل لفعل يقع في البعد المعرفيّ، أي **فعل–إقناع**. في الأوّل، تتّخذ **المعرفة** شكل تعرّف، في لحظة أخرى تأخذ شكل عقد.

ا) التّعرّف (البيتان 5 و 6)

إذا ما كان تأويلنا للبيتين الأوّلين في الخرافة سليما، لا يعبّر موقف الغراب فقط عن إمكان وإرادة الطّائر في أن يحتفظ بما يملك، لكن أيضا وبالخصوصالرّغبة في كسب قيمة امتياز والتي، لكي تتوفّر، هي في حاجة إلى أن يعترف بها ذوات معجبة. وهو ما يسارع بفعله الثّعلب في البيتين الأوّلين من هذه المقطوعة. تتدخّل عباراته كتعرّف، تقييم أداء. الذّات المنجزة تمّ التّعرّف عليها كبطل من طرف المرسل المقاضي والتّسمية التي يمنحها له "السيد غراب"، تكرّس هذا التّعرّف.

المقطع الأوّل المنطوق من طرف الثّعلب: "آه!" ليس كلاما خالصا. لم يصبح بعد لفظا، لكنّه مجرّد صيحة. هذه الطّريقة في التّعبير تظهر كانتقال بين التّواصل بالرّائحة والتّواصل باللّغة. إنّ ما يصدر عن الجبن من روائح يتحوّل إلى ملكة لغويّة. إنّ تملّك اللّغة يتمّ بواسطة بصيغة ما قبل لغويّة تسم الذّات بالانتقال من الحيوان الأعجم إلى الحيوان النّاطق.